ابن النفيس

أحد أعلام ثلاثة يذكرون معا فى مجال النهضة العلمية فى ازدهار الحضارة الإسلامية ابن سينا- الرازى- ابن النفيس.

كان ابن سينا فيلسوفا عميقا، والرازى طبيبا ماهرا، واكلينيكيا فذا وابن النفيس علميا مجددا بكشفه عن سر غامض من أسرار الجسم وبعض وظائفه الفسيولوجية بانيا استنتاجاته على أسس راسخه من الملاحظة الدقيقة والمنطق السليم.

هذه الشهادة له من طبيب كبير هو الدكتور بول غليونجى مؤلف الكتاب كما أفرد «كلير» صحيفتين لابن النفيس فى كتابه (عن تاريخ الطب العربى).

يتكلم الباب الأول من هذا الكتاب عن تاريخ الطب قبل ابن النفيس بل على التحديد: الطب قبل العرب.

نشأ الطب مع الألم... والألم قدر الإنسان وهو فى المهد (ولقد خلقنا الإنسان فى كبد) وتفنن البشر فى العلاج منذ الآهات الأولى فى الغابة ومن الطرائف القول بأن أول من مارس الطب هو آدم عليه السلام عندما عاون حواء وهى تضع طفلهما الأول.

لكل شعب طبه الخاص النابع من تجربة حياته... وقد صاحب الطب حضارتى النيل والفرات. ويرى الدكتور بول غليونجى أنه مهما يكن من أمر تبادل المعارف الطبية بين وادى النيل ووادى الفرات فإن طب كل منهما نحانحوا مختلفا يصور طبيعة كل من الشعبين، فنشأ الطب المصرى على نزعة تجريبية اختبارية، لايكون السحر فى أقوى فتراته إلا جزاء ضئيلا منه، أما الطب البابلى فقد بنى على السحر والعبادة مع قبس هين من العقاقير.

ويسجل لمصر أن الطب المصرى نشأ على أسس واقعية أول مرة فى مصر؛ وترعرع فيها ووصل إلى ذروته على مايبدو فى خلال عهد المملكة الحديثة، وذاعت شهرة الأطباء المصريين وسعى أباطرة آسيا إلى الفراعنة بغية ايفاد أشهر أطبائهم إلى بلاطهم.

أقول ثابت فى تاريخنا أن (دارا) شاه الفرس عندما مرض استعان بالأطباء المصريين.

وورثت جامعة الاسكندرية القديمة الطب المصرى القديم بتقاليده التى ظلت حية حتى عهد جالينوس فى القرن الثانى الميلادى إذ كان العلماء مايزالون يترددون على مكتبة منف ليطلعوا على المؤلفات المحفوظة بها، فقد زار مصر كبار أطباء اليونان أمثال فيثاغورس وأبقراط وأفلاطون وقرأ هؤلاء على الأقطاب المصريين، واقتبسوا منهم الكثير وصبوه فى القالب الفلسفى وصاغوه فى الصيغ النظرية التى كانت عقولهم تميل إليها... لقد أطلق افلاطون اسم (المأدبة) على أهم انتاج له وسميت فئه من الفلاسفه (المشائين) نسبة إلى الطريق الذى كان يحيط البارثنون فى قلب أثينا، والذى كانوا يتمشون فيه وهم مسترسلون فى جدلهم.

هذا بينما يقوم أسلوب مصر على التجربة والاختبار الدقيق بل الممعن فى الدقة ويمثل هذا قصة فيثاغورس مع الكهنه المصريين وبهذه المناسبة الكهانة فى مصر القديمة كانت تعنى قمة العلم والأسرار التى وقفت وراء الحضارة المصرية.

والقصة تقول إن فيثاغورس كانت أمنيته أن يقابل الكهنة المصريين وأن يجتمع بهم فرجا«فولو قراطيس» رجاء حارا أن يساعده فى تحقيق أمنيته فكتب إلى «أمسيس» ملك مصر كتابا يطلب إلى جلالته أن يحقق أمنية صديقه فيثاغورس ويجود عليه، بها... فأحسن الملك المصرى استقباله وقبوله وأوصى الكهنة، به فذهب إلى أهل مدينة الشمس (عين شمس) فأحسنوا وفادته وأخذوا فى إمتحانه فلم يجد واعليه نقصا فوجهوه إلى كهنة منف تقبلوه قبولا فاترا واستقصوا امتحانه، ثم بعثوا به إلى أهل ديوسبولس ليمتحنوه، ففرضوا عليه فرائض صعبه مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع عن قبولها فيفحموه فقبل ذلك وقام به.

وعاش فيثاغورس فى مصر واشتهر بالورع حتى بلغ ذكره، الملك فعهد إليه برعاية القرابين ولم يعط ذلك لغريب قط.

وفيثاغورس عاصر «القمايونAlcmaeon الذى سمى قبل الأيقراطى، وكا وكان مذهبه أن الصحة إن هى إلا حالة التناسق أو الانسجام التام بين عناصر الجسم المختلفة، وأن المرض يحدث بطغيان عنصر على العناصر الأخرى وأن الشفاء هو الانتقال مرة أخرى من حالة الاضطراب إلى حالة الانسجام.

(وهذه النظرية هى التى تبناها بعد ذلك ابقراط واعتمد عليها فى وضع نظرية الاخلاط) والدكتور بول غليو نجى طبيب أديب بدليل أنه يقف من وقت إلى آخر عند الطرائف الأدبية أو

تستوقفه فعند حديثه عن الطبائع يقول إنها ذاع تقسيمها إلى أربع حتى بين غير المتطببين إلى درجة أننا نجد الشعراء يتناولونه فى مزاحهم وأبونواس مثلا يقول:

سألت أخى أبا عيسى
وجبريل له عقل
فقلت الراح تعجبنى
فقال كثيرها قتل
فقلت له فقدر لى
فقال وقوله فصل
وجدت طبائع الانسان
أربعة هى الأصل
فأربعة لأربعة
لكل طبيعة رطل

وما جبريل أبوعيسى الذى يستشهد به أبونواس الإجبرائيل بن بحتيشوع من مشاهير أطباء أوائل العهد الإسلامى ومن الطريف أن هذه الأبيات تزدان بها جدران فندق من فنادق القاهرة الوجيهه وهذا ولاشك لحث رواده على الوصول إلى هذا القدر من الأرطال.

ولايخفى الدكتور غليونجى إعجابه بطب أبقراط بدليل قوله (إن أبقراط قد ادرك كما يدرك جميع الأطباء الجديرين بهذا الاسم- أن الجسم يستطيع أن يحل مشاكله بنفسه. حتى إذا تحتم عليه تحمل المرض أثناء هذه العملية... يترتب على ذلك أن أنجح وسيلة للعلاج هى ترك الجسم يستمد صحته تلقائيا...)

ولكن الدكتور بول غليونجى ينوه أكثر ببردية مصر التى تحمل اسم ادوين سميث مكتشفها حين نقرأ هذه العبارة (دعه مربوطا فى مرساه).

ويقول الدكتور بول غليونجى أنه يجدر إذا تعذر الشفاء- تغيير الظروف التى حدث فيها المرض، وذلك بأن ينقل المريض إلى بيئة صالحة، وأن يقدم إليه طعام صحى ولقد قال أفلاطون فى

هذا المعنى فى مؤلفه المسمى طيماوس هناك علاج واحد لجميع الامراض وهو تزويد المريض بغذاء مناسب ووظائف ملائمة... وهذه التهيئة تسميها التربية فى العصر الحديث بالـ Disita أو الـ Pleime ومعناها (نظام الحياة) وهذا النظام يعده أبقراط خير الوسائل حتى سمى بالعلاج الأبقراطى.

ونظام الحياة هذا كان يعتمد إلى حد كبير على الرياضة التى كانت تختلف باختلاف أساليب الأساتذة وأشهرهم هيروديكوس... ومن الطريف ان نظامه كان يشمل الغذاء ونشر الخشب والمشى التدريجى والقراءة بصوت مرتفع والغناء.

وأورد الدكتور بول غليونجى وصية أبقراط التى يرجح أنه أخذها عن قدماء المصريين وأنابدورى أرجح هذا مستندة إلى قول «وارث دواسن» الذى يقول:

(إن قدماء المصريين كانوا يتمتعون بأعلى سمعة فى كفاءتهم الطبية.. إن أسس علوم الطب وضعت فى مصر منذ أكثر من خمسين قرنا بما لايدع مجالا للشك).

ويقول د.و. سلولى:

(لم يعد خافيا أن علوم الإغريق التى عرفتها الدنيا ليست من ابتداعهم ولكن أولئك الذين كان بهم ظمأ إلى المعرفة والرحلة فى سبيلها أتوا إلى مصر... وعلى هذه الأرض رأوا المصريين فى مواقع العمل وراعهم مارأوا.

هنا على هذه الأرض وجدوا القواعد الأولى فى الرياضيات والعلوم التى قاموا بنشرها أخذا عنهم.

فمن خلال الإغريق وصل تراث مصر إلى باقى العالم).

أقول لقد بلغت مصر شأوا بعيدا فى الطب حتى بلغ من أمر قدماء المصريين فى الطب أنهم حتموا على الطبيب أن يكون قوى الايمان، طاهر القلب، حسن السيرة.

ولايمارس الطب إلا الحاصل على شهادة علمية يثبت كفاءته. وكان الطبيب يعلق على منزله شعار الطب (الكوبرا المقدسة رمز القوة والتمكن).

أعود إلى وصية أبقراط لطرافتها فى ذاتها فعنده أن (الطبيب يجب أن يكون معتدل القامة متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأى، عفيفا شجاعا، غير محب للفضة-

كناية عن أن حب المال يغرى بالجشع- مالكا نفسه عند الغضب، مشاركا للعليل، مشفقاً عليه، حافظ للأسرار، محتملا للشتيمه لأن قوما من المبرسمين وأصحاب الوسواس السوداوى يقابلوننا بذلك وينبغى أن نحتملهم عليه... ولايتسقصى قص أظافر يديه ولايتركها تعلوا طراف أصابعه ويجب أن تكون ثيابه بيضاء نقية، ولا يكون فى مشيه مستعجلا لأن ذلك دليل على الطيش ولامتباطئا لأنه يدل على فتور النفس، وإذا دعى إلى المريض فليقعد متر بعا ويختبر منه حاله بسكون وتأن لابقلق واضطراب).

وقد نوه الدكتور بول غليونجى فى كتابه عن ابن النفيس بمدرسة قنيدوس الأسيوية التى أنجبت المعمارى «ستراتوس» الذى شيد منارة الاسكندرية، وبعض علماء الأطباء الذين عملوا بالاسكندرية.

وعنده أن هذه المدرسة قد تميزت بنظريات كان لها شأن عظيم فى التفكير الطبى المصرى القديم من قبل، وربما ورثتها عنه وهى آراء لاتزال نرى آثارها فى الطب الحديث فقد نشأت بها فكره البريتونا Perittona أى الفضلات المسببه للمرض، التى أخذ بها جالينوس فيما بعد، وهى القائلة بأن اجتياز هضم الغذاء حدوده الاعتيادية، ينتج عنه ظهور مواد غير طبيعية تسرى فى الجسم... وأن الغائط إن كان ينتج عن هضم الأغذية Pepsis فإن التعفن ما هو الاخطوة فى تلك العملية اجتازت الحدود الطبيعية فأصبحت مرضية.. وقد كان المصريون من قبلهم يعتقدون أيضا أن سوء التغذية أو الافراط فيها أو دخول عوامل خارجية على عملية الهضم تؤدى إلى النتيجة نفسها، إلى حد أنهم كانوا يؤمنون بأن الديدان المعوية قد تنشأ بالطريقة ذاتها.

وانتقل الدكتور بول غليونجى فى كتابه إلى الاسكندرية المدينة التى أنشئت سنة ٣٣٢ ق.م فإذا بها تحتل مركز التجارة فى البحر الأبيض المتوسط بل تحتل مركز الثقافة وتصبح نقطة التقاء الشعوب والحضارات.

إنى افسح للدكتور بول غليونجى أن يشيد، أمينا، بالاسكندرية.. ثم أضيف... يقول الدكتور العالم:(عاد الطب تحت ظل البطالمه، من اليونان إلى موطنه الأول مصر ولئن كانت لغة البطالمه هى الاغريقية- وهى لغة العالم المتمدين فى ذلك الوقت- ولئن أصبحت تلك اللغة كذلك لغة مصر الرسمية، ولئن اتخذ علماء مصر لأنفسهم أسماء ذات رنة إغريقية، فلم يخف علينا، مع ذلك، أن أغلبية السكان الساحقة، حتى فى مدينة الإسكندرية، كانت من المصريين الأصليين، الواثقين من

عراقة أصلهم وأصالة مجدهم وثوقا يجعلهم يفخرون بتراث ماثل فى أذهانهم، وبذلك تشهد ثوراتهم العنيفة ضد بيزنطه، وانشقاقهم على مذاهبها الرسمية، واعتناقهم المذهب اليعقوبى القائل بتوحيد الطبيعة (الطبيعة الواحدة) وتحملهم فى سبيل هذا اشنع اضطهاد بل إن الدين المصرى القديم اكتسح فى الاسكندرية، الدين الوثنى اليونانى، وجعل منه خليطا تغلب عليه الصبغة المصرية).

وهنا أضيف:

على يد مدرسة الاسكندرية قبل المسيحية ورجالها المصريين تخرج فى المعهد اليونانى والرومانى علماء العالم القديم فى الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة والهندسة والفلك.

وعلى يد مدرسة الاسكندرية المسيحية ورجالها المصريين تخرج علماء العالم المسيحى فى هذه العلوم بما ورثه اقباط مصر من قدمائنا من دراية فيها وبراعة مشهودة وفى العلوم أسست مصر علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح، وهى صاحبة نظرية الذرة وواضعة تذكرة الطب المشهورة باسم تذكرة كرنيليوس كلسوس وظلت الدنيا تستعمل عقاقير مصر القديمة إلى القرن الثانى عشر.

ووضعت مصر المسيحية غالبية المصطلحات الطبية وعليها تتلمذ جالينوس ولها شهد «نيتولتسكى» فى كتابه الطب الشعبى المقارن.

لقد سبقت مصر بفضل.. هيروفيلوس، العالم طرا فى دراسة الأمعاء الدقيقة كما سبقت إلى اصطناع البحث العلمى بفضل اقليدس صاحب (المبادئ) :

ومصر المسيحية هى التى وضعت فى الفلك حساب الأبقطى واحتشدت البحوث الأوروبية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر لدراسة (تراث العصور الوسطى) سجلت الدراسة لمصر المسيحية أنها أحد المنابع الكبيرة التى سبقت الفنون الرومانية بعد جفافها وجمودها.

إن العالم اليوم يدرس مصر المسيحية فى الفلسفة والأدب والتاريخ والفن.. ومن أعلام الدارسين فى هذا المجالLefort , Crum واستمرت مصر فى حمل المشعل حتى أننا نرى كما يقول الدكتور بول غليونجى حنين بن اسحق الذى اشتهر بترجماته العديدة يشترى من الاسكندرية محفوظات عديدة ليترجمها فى بغداد وكان ذلك بعد ثلاثة قرون من الفتح الإسلامى.

ويؤكد حنين بن اسحق فى تعريبه لمؤلفات جالينوس أن أطباء الاسكندرية كانوا قد كونوا مجموعة طبية من ستة عشر جزءا قبيل الفتح العربى وأن هذه المجموعة صارت أساسا للتعليم الطبى.

ومن المعروف أيضا أن بين من ترجموا مؤلفات جالينوس القس سرجيوس الذى نقل بعضها إلى السريانيه وهى اللغة التى كانت سائدة فى غرب آسيا.

وفى القرن السابع كتب بولس الأجنطى Paulus Aegineta (كتب الطب السبعة) اليونانية كما ظهر أحرن القس صاحب الكناشة Pandectes الموضوعة بالسوريانية. وقد ترجم هذا المؤلف إلى العربية وكان له شأن كبير فى بدء الطب الإسلامى.

ويتحدث الدكتور بول غليونجى عن الطب العربى بادئا وهوالمسيحى بالثناء على الرسول الكريم فى نزاهة العالم وموضوعيته (إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبدى فى أحاديثه الشريفة، أكثر من مرة، تقديره للطب وللتحفظ والوقاية للتحرز من المرض ووضع هذا العلم إلى جانب الفقه بين أعلى العلوم مركزا... وقد اختلف الإسلام عن الديانات السابقة بإعفائه المرضى من بعض الالتزامات الدينية).

ويسجل للعرب أنهم أظهروا نحو غير المسلمين تسامحا اختلف كل الاختلاف عن تعصب هؤلاء).

كما يشير إلى أن العرب استقوا العلوم من منبعين! الاسكندرية وانطاكية وحران، والثانى من النساطره الهاربين من اضطهاد بيزنطه، وغيرهم من العلماء بعد أن اغلقت مدرسة حران فى سنة ٤٨٩م ومدرسة أثينا فى سنة ٥٢٩م.

وازدهرت الحضارة الإسلامية وأسس العرب (بنوامية) مدينة قرطبة وأنشأوا بها مكتبه حوت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد.. وظهر أعلام هم نجوم فى سماء هذه الحضارة الإنسانية منهم الرازى، ويعده الكثيرون من مؤرخى الطب أعظم أطباء العرب وضع مائتى مؤلف أو تزيد فى الفلسفة والفقه والرياضة والفلك والطب. وفى أخريات حياته أصيبت عيناه بداء الماء الأبيض فلما أراد أحد الجراحين إجراء جراحة لإزالة هذا الداء، سأله الرازى سؤالا فى تشريح العين وأخطأ الجراح فى الإجابة فأبى الرازى أن تجرى له الجراحة قائلا :

لقد أبصرت من الدنيا حتى مللت.

وأهم مؤلفات الرازى كتابه (الحاوى) وهو موسوعة تقع فى ٢٤ جزءا وتحوى كل ما قيل فى الطب من قبله... ونقله إلى اللاتينيه فرج بن سالم اليهودى بأمر من الملك شارل أنجو ملك نابولى وصقلية.. وبلغ الحرص على هذا المؤلف الضخم، بسبب قيمته النادرة أنه لم يسمح بإعارته ملك فرنسا عندما طلب استعارته إلا بعد أن أودع ملك فرنسا قدرا باهظا من المال على سبيل التأمين.

وقد ألف الرازى: الجامع- والمدخل- والكافى- والملوكى- والفاخر- والمنصورى وهى كتب يعتد بها الاستاذ الدكتور محمد كامل حسين.

ومن اضافات الرازى الهامة إلى الطب التشخيصى وصفه الطاعون وتمييزه أول مرة فى التاريخ بين الجدرى والجديرى والحصبة، ووصفه وصفا دقيقا ما نسميه اليوم حمى الدراس Hay fever.

ووقف الدكتور بول غليونجى عند عملاق كبير من عمالقة الحضارة الإسلامية هو: ابن سينا الشيخ الرئيس والمعلم الثانى بعد ارسطو.

وقد ألف ابن سينا ستة عشر مؤلفا فى الطب وستة وخمسين ومائة مؤلف فى مواد أخرى.. وأهم المجموعة الأولى وأذيعها صيتا هو كتاب (القانون) الذى ترجمه جيراردى كريمون فى طليطله بأسبانيا وطبع أول مرة فى نابولى بالعبرية سنة ١٤٩١م.

وقد طبع كتاب (القانون) خمس عشرة مرة باللاتينية فى القرن الخامس عشر الميلادى وكان ضمن الكتب المقررة فى جامعة لوفان ببلجيكا حتى القرن السابع عشر أى بعد وفاة مؤلفه بسبعمائة سنة.

يقول الدكتور بول غليونجى الطبيب أن ابن سينا عُرف الطب تعريفا لم تصل الهيئات الدولية الحالية إلى أحسن منه.

وتعتز الحضارة الإسلامية بالزهراوى الذى وضع (التصريف لمن عجز عن التأليف) وهو مؤلف ضخم يقع فى ثلاثين جزءا يتناول العقاقير والأمراض الباطنة بالإضافة إلى صناعة اليد وأوصاف دقيقة لبعض الجراحات مثل استخراج حصاة المثانة بالشق والتفتيت واستئصال أكياس

الغدة الدرقية، ولم يهمل الولاده ووصف استعمال الجفت لاستخراج المولود وهو أول كتاب فى تاريخ الجراحة رسمت فيه آلات جراحية، وعددها يزيد على المائتين وأكثرها من ابتكاره.

وانتقل الدكتور بول غليونجى إلى الباب الثالث فى كتابه وقد عقده عن (حياة ابن النفيس) وفى هذا الفصل توسع فى صف ابن النفيس فى دمشق ليعقد الفصل الرابع عن ابن النفيس فى مصر).

وفى هذا الفصل يسجل أن ستين طبيبا نشأوا فى مصر أو عملوا فيها بين سنة ١٨٠- وسنة ٦٤٠هـ من أشهرهم ضياء الدين البيطار الذى ألف فى الأدوية وكانت كتاباته اساس المادة الطبية الحديثة. وانتشرت فى القاهرة البيمارستانات.

يقول الدكتور بول غليونجى (لنتصور ابن النفيس فى القاهرة وأهل الحى يشيرون بهيبة واحترام إلى شيخ نحيف طويل القامة أسيل الخدين تنم مشيته وسيماؤه على دماثه الخلق وآداب المعاملة، وهو يتجول فى الحوارى بين منزله وبين البيمارستان بجوار قصر الفاطميين والأيوبيين وأوائل المماليك البحرية إلا أن رقعتها كانت أضيق بكثير من رقعتها اليوم. كان نهر النيل يحدها غربا، وكان مجراه حتى سنة ٦٨٨هـ - وهى سنة وفاة ابن النفيس- يمر من فم الخليج إلى شارع سعد الدين فشارع نوبار إلى أن يلتقى هذا الشارع بشارع ريحان... ويمضى المؤلف فى وصف معالم القاهرة والنيل فيها وبدائع الفن الإسلامى وكان ابن النفيس يتردد على قبة الإمام الشافعى وكان ينتمى إلى مذهبه.. حتى ان السبكى ترجم لابن النفيس فى (طبقات الشافعية) وشاهد ابن النفيس الجيوش تعد للسفر أو تعود منه وعاصر الحروب الصليبية واعتقال لويس التاسع فى المنصورة.. وهجوم هولاكو على بغداد وهدمها سنة ٦٥٦هـ عاش ابن النفيس فى عصر شهد أحداثا كبيره فاصلة ولكنه بحكم مكانه فى العلم ومكانته بين أهل زمانه حكاما ومحكومين حظى بالاحترام والتقدير ماديا ومعنويا.. فتحت له كنوز الدنيا كما أتيحت له أبواب العلم حتى روى عنه أنه (ابتنى دارا بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى إيوانها، ومارأيت إيوانا مرخما فى غير هذه الدار) وقد أوصى بوقف هذه الدار وماجمعه من الكتب للبيمارستان المنصورى.

يقول المؤلف (كان كثير الاجتماع بأهل العلم والطب فى داره التى كان يتردد عليها الأمراء والأعيان من أمثاله كالمهذب بن أبى خليقه رئيس الأطباء.

ومن طرائف ابن النفيس أنه كان كثير السهو وأن قريحة التأليف كانت تتسلط عليه أحيانا بقوة لايستطيع الافلات منها فتحفزه إلى رمى ما فى يده وحصر فكره فى الكتابه، متأثرا بنوع من الإلهام حتى فى أغرب الأماكن، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من العلماء والفنيين. وقد روى أيضا أنه «إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية ويدير وجهه إلى الحائط ويأخذ فى التصنيف إملاء من خاطر ويكتب مثل السيل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلم وحفى، ركنه جانبا وتناول غيره لئلايضيع عليه الزمان فى برى القلم). وروى آخر (دخل ابن النفيس مرة الحمام الكائن بباب الزهومة واثناء الاستحمام خرج إلى ملحق الحمام وطلب دواة وقلما وورقا وأخذ يكتب بحثا فى النبض إلى أن أكملة ثم عاد إلى الحمام وأكمل استحمامه.

وقد مرض ابن النفيس، الطبيب، ستة أيام أولها يوم أحد وغادر الدنيا فى سحر يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٧هـ.

وقد كان لوفاته أثر كبير فى قلوب معاصريه. ذكره ابن اياس بين من توفوا من اعيان العلم فى عهد قلاوون.

وكان يطلق على ابن النفيس (ابن سينا الثانى) من حفاوته بابن سينا حتى إنه شرح كتاب القانون فى عشرين مجلدا شرحا حل فيه المواضع الحكمية ورتب فيه القياسات المنطقية وبيَّن فيه الاشكالات الطبية ولم يُسبق إلى هذا الشرح.

وكان ابن النفيس كريما بعلمه ومع هذا لم يبق من كتبه إلا النزراليسير ولوقياساً إلى ما، صنف وكتب فكتابه (الشامل فى الطب) لايوجد منه إلا صفحات أو حتى فقرات فى مكتبة البودليان بأكسفورد تحت رقم (٥٣٦-٥٣٩) .

وكتابه الزائع في حياة (المهذب فى الكحل) موجود في مكتبة الفاتيكان .Hrabo 307

وكتابه (المختار من الأغذية) موجود فى مكتبة برلين.

وكتابه (شرح فصول أبقراط) موجود فى مكتبات برلين وجوتا واكسفورد وباريس والاسكوريال. وفى أيا صوفيا نسخة مؤرخه ٦٨٧ هـ (١٢٨٨) م أي سنه وفاته وقد طبع هذا الكتاب فى ايران سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨١م).

وكتابه (شرح مسائل حنين بن اسحق) موجود فى مكتبه ليدن بهولندا (رقم ١٢٩٦) وإن كان بروكلمان يتحفظ عليه.

وكتابه (موجز القانون) كثرت ترجمته إلى اللغات الأجنبية وتعددت التعليقات عليه. وهذا الكتاب انتشر فى الشرق وله تأثير بالغ فى طب البلاد الشرقية.وقد ترجم إلى اللغة التركية كما ترجم إلى العبرية وطبع بالإنجليزية فى كلسكتا سنة ١٨٢٨ تحت عنوان (المغنى فى شرح الموجز) ثم أعيد طبعه فى لاكنو سنة ١٩٠٦.

وابن النفيس من الشخصيات الموسوعية فهو فى غير الطب، صنف فى المنطق كما جاء فى (مسالك الأبصار) وألف فى اللغة وعلم البيان والحديث بل صنف فى النحو إلى الحد الذى يقول معه، ابن النحاس (لا أرضى بكلام أحد فى القاهرة فى النحو غير كلام ابن النفيس) وكتابه فى النحو اسمه (طريق الفصاحة).

وكتب فى السيرة النبوية الشريفة.

وعارض رسالة (حى بن يقظان) لابن طفيل وأسماء (فاضل بن ناطق).

وحين لم يضع ابن سينا أى مؤلف فى التشريح البحت، اهتم ابن النفيس بالتشريح فى وقت كان تشريح الجثث يعد إنتهاكاً لحرمة الجسم البشرى وإذا كان بعض العلماء مارسوه، فإنهم فعلوا هذا فى جو من السرية والخفاء.. هذا إلى أن سمحت به الكنيسه فى الغرب.

وكان السماح أول مره فى أضيق الحدود فقد كانت السلطات فى المانيا مثلا تأذن بتشريح جثة واحدة سنويا.. أما جامعة ليريدا فى أسبانيا فقد كانت ترخص بجثه واحدة كل ثلاث سنوات بينما كان الطلبه فى باريس وانجلترا نصيبهم أربع جثث.

ومن الطريف أن ابن سينا الذى اهتم بشرح التشريح قال فى ديباجة شرحه (وقد حالنا عن مباشرة التشريح نوازع الشريعة وما فى أخلاقنا من الرحمة).

ثم يقول (والتشريح يكذب ذلك).. اذن عرفه ومارسه.

ويقول الدكتور بول غليونجى تعليقا على عبارة ابن النفيس مخالفا ابن سينا فيما ذهب إليه من أن القلب له مستودع غذاء يتغذ ى به وجعله الدم الذى فى البطين الأيمن منه.

هنا يقول ابن النفيس (لايصح البته فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المار فيه من العروق الماره فى جرمه).

يقول الدكتور بول غليونجى هذه العبارة تجعل ابن النفيس أول من فطن إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها، وهى تضيف دليلا آخر على أن ابن النفيس مارس التشريح، كما أنها تجعل منه أول من وصف الشريان الأكليلى وفروعه.

لقد عارض ابن النفس أيضا نظرية جاليتوس التى ظلت مسيطرة على الفكر الطبى حتى عهد النهضة الغربية فى القرن السابع عشر ولم يعارضها عدا ابن النفيس فى القاهرة فى القرن الثانى عشر الميلادى.

لقد انتقل طب العرب وعلمهم إلى أوروبا عن طريق الاندلس وأسبانيا بالدرجة الأولى وإلى جانب هذا عامل مساعد مدرسة سالرنو التى كانت بمثابة قنطره وصلت عليها علوم العرب إلى أوروبا... وهناك عامل آخر «الباجو» عندما كرس سنوات من عمره لترجمة الأصول العربية ويشير الدكتور ألبير زكى اسكندر إلى عثور على أدلة جديدة تزيدنا يقينا بوجود تسلسل متصل بين ابن النفيس والباجوثم بين هذا الأخير وعلماء أوروبا.

من حق الدكتور بول غليونجى تقديرنا جميعا على كتابه النفيس عن ابن النفيس.